

نَظَرِيَّةُ الْبَلَاغَةِ بَيْنَ النَّقْدِ الْعَرَبِيِّ وَالنَّقْدِ الْيُونَانِيِّ



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ففي نهاية الندوة السابقة عن الضمير «نحن» سأل أحد الحاضرين: ما جدوى هذه الندوة وماذا علينا إذا كان أصل هذا الضمير أننا أو أنحنو؟

وقيل في الجواب - على ما أذكر - : إن هذا بحث أكاديمي، وله طلابه من خاصة الدارسين، وهو كلام شديد، لكنني أضيف إليه أن الجدوى كبيرة من البحث عن أصل «نحن» على هذا النحو الذي فعله أستاذنا الدكتور خليل عساكر، لأننا عن طريق هذا البحث وأمثاله في جميع الكلمات سوف نتبين مزية اللغة التي نزل بها القرآن على غيرها من لهجات العرب أولاً، وسائر اللغات السامية ثانياً، ولا أظننا نعرف هذه المزية عن طريق آخر، وإذا كنا بحاجة إلى تأصيل اللغة التي نزل بها قرآننا فإننا بحاجة أيضاً إلى تأصيل نظرية البلاغة التي راعاها، وهو ما نحاوله - بعون الله - في هذه الندوة.

فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً أو خطباً ومنها ما يكون رسائل.

فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر كلامك

وفي سبيل ذلك لا بد أن نشير أولاً إلى أن نظرية البلاغة نشأت في أحضان النقد الأدبي، وأن النقد الذي نشأت في أحضانه قد تأثر في العصر العباسي بالفكر الإنساني المترجم، لا سيما فكر اليونان الفلسفي والنقدي، والذين قرأوا «البيان والتبيين» للجاحظ يدركون مدى عناية النقاد والمتذوقين بتحديد هذه النظرية من قديم، فهذا معاوية يسأل صحرار السعيد «ما البلاغة؟ فيقول له: البلاغة الإيجاز»^(١). وهذا ابن المقفع يُسأل نفس السؤال فيجيب: «البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة،

(١) البيان والتبيين ١/ ٩٦. الطبعة الأولى بتحقيق الاستاذ هارون. مطبعة لجنة التأليف، الترجمة والنشر ١٣٦٧ - ١٣٦٩ / ١٩٤٨ - ١٩٥٠

كل ما سبقه ولم يدع بعده مقالاً لقائل . وإلى تعريفه هذا قصدت بنظرية البلاغة .

لكنني - كما أشرت - لا أبحث عن هذه النظرية من حيث أبوابها ومسائلها، فذلك موضوع آخر، إنما أبحث عنها من حيث أصلها الأصيل وجرثومتها الأولى، لنرى هل كانت من الذوق العربي قبل أن يتأثر بالذوق الأجنبي، أو منه بعد هذا التأثير؟

ولست أزعم أنني أول من تعرّض لذلك أو حاوله، إذ قد تعرّض له قبلي غير واحد من دارسي البلاغة والنقد، ومن الإنصاف لهم أن أبين أولاً ما انتهوا إليه في هذا الموقف، فمن دارسي البلاغة الدكتور طه حسين، والدكتور سيد نوفل، والدكتور شوقي ضيف، ومن دارسي النقد الدكتور محمد غنيمي هلال.

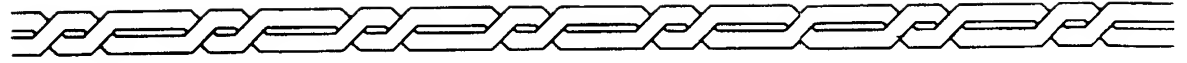
أما الدكتور طه حسين ففي محاضرة ألقاها سنة ١٩٢٩ م. يقول: «إن البلاغة العربية أخذت حرفياً عن البلاغة اليونانية حتى في الشواهد والصور والتعابير»^(١). وفي المقدمة التي مهّد بها لكتاب «نقد النثر» المنسوب إلى قدامة ابن جعفر وعنوانها «في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر» أشار إلى مبدأ رعاية مقتضى الحال على أنه مما أدركه الجاهليون وطالبوا به الخطباء، ثم أشار إليه ثلاث مرات بعد ذلك على أنه من مبادئ أرسطو التي استفادها البيان

دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته. فقيل له: فإن ملّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق الموقف؟ قال إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو؛ فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله»^(٢)، على أن دائرة السؤال عن البلاغة قد اتسعت في العصر العباسي لتشمل جميع الأمم التي تعربت ودخلت في الإسلام حتى «قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة»^(٣). إلى غير ذلك من التعريفات التي ذكرها الجاحظ ولم تكن كلها جامعة مانعة، بدليل تعدّد المحاولة على هذا النحو إلى عهده، وبدليل تجددّها على مدى أربعة قرون من بعده، حتى كان الخطيب القزويني المتوفى سنة ٧٣٩ هـ، فعرف البلاغة أدق تعريف في قوله: «أما بلاغة الكلام فهي مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحتها»^(٤) وكان أدق تعريف، لأنه أتى على

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٦. (٢) البيان والتبيين ١/ ٨٨.

(٣) الإيضاح ٢/ ١ نسخة مصورة بالأوفست في بغداد عن نسخة مطبوعة في القاهرة بمطبعة السنة المحمدية.

(٤) انظر: «النثر الفني في القرن الرابع» للدكتور زكي مبارك ١/ ٤٤ الطبعة الثانية بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.



العربي، عن طريق الجاحظ في «البيان والتبيين»، وعن طريق قدامة في «نقد الشعر»، وعن طريق عبد القاهر في «دلائل الإعجاز»^(١).

وأما الدكتور سيد نوفل ففي كتابه «البلاغة العربية في دور نشأتها» تتبع ملاحظات البلغاء على البلاغة منذ العصر الجاهلي حتى انتهى إلى التعريفات التي ذكرها الجاحظ، فقال عن تعريف ابن المقفع السابق «أما ابن المقفع الذي عُرف بثقافته الفارسية، ونقله عنها إلى العربية، فقد عرف البلاغة تعريفاً قصداً فيه إلى الإحاطة والشمول، ويظهر أن تعريفه لم يكن نتاجاً لتطور الفكرة الطبيعي، بل كان متأثراً بثقافته الأجنبية، وإن لم يعدم وجهاً للشبه بينه وبين ما سبقه، ولهذا عد طريفاً في بابيه، ويمكن تلخيصه: بأنه الإيجاز في موضعه، والإطناب في موضعه، والمعرفة بسياسة القول، والمطابقة بين الكلام ومقتضاه، وكأن جرثومة التعريف الاصطلاحي وجدت عند ابن المقفع»^(٢).

وأما الدكتور شوقي ضيف ففي كتابه «البلاغة تطور وتاريخ» ذهب إلى أن فكرة مطابقة الكلام لسامعيه وأن لكل مقام مقالاً فكرة يونانية الأصول، تكلم عنها أفلاطون، وبسطها أرسطو في «كتاب الخطابة» بسطاً واسعاً، وعن اليونان في رأيه، أخذها الذين

تأثروا بثقافتهم من الفرس والهنود والسريان، فابن المقفع الذي أُلِّم بالفكرة في تعريفه السابق قد ترجم أجزاء من منطق أرسطو عن الفارسية إلى العربية، مما يدل على صلته وصلة لغته الفارسية بالثقافة اليونانية، وصحيفة البلاغة الهندية التي نقلها الجاحظ كما أُلِّم بالفكرة أُلِّمت بصناعة المنطق، مما يعني صلة كاتبها بالثقافة اليونانية، أما نصارى السريان الذين كانوا في جدل متصل مع المعتزلة فصلتهم بالفكر اليوناني أعمق وأكبر، ومعنى هذا أن العرب قد عرفوا الفكرة وغيرها عن طريق هؤلاء، قبل أن يعرفوا كتابي أرسطو في الشعر والخطابة، لأن هذين الكتابين لم يترجما حتى أواخر العصر العباسي الأول، بدليل أن الجاحظ لم ينقل عن صاحبهما أي رأي في البلاغة والبيان»^(٣).

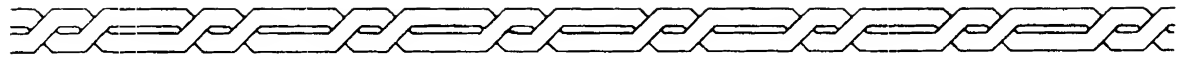
وأما الدكتور غنيمي هلال ففي كتابه «النقد الأدبي الحديث» عدَّ أرسطو أبا النقد في الآداب الأوروبية وفي الأدب العربي^(٤)، كما عدَّ أهم الاتجاهات النقدية في العصر العباسي متأثرة بالنقد اليوناني، وفي التمثيل لهذا التأثير يقول: «فمن ذلك اتجاه المتكلمين الفلسفي في مثل صحيفة بشر بن المعتز - وهو من المعتزلة وتوفي عام ٢١٠ هـ - يقول في تلك الصحيفة: والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة. وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني

(١) انظر: مقدمة نقد النثر ص ٤، ٧، ١٨، ٣٠ ولجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م بتحقيق عبد الحميد العبادي وطه حسين.

(٢) البلاغة العربية في دور نشأتها ص ١٠٧ نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٨، ٣٩ الطبعة الثانية بدار المعارف بالقاهرة بدون تاريخ.

(٤) النقد الأدبي الحديث ص ١٥٩ الطبعة الرابعة بمطابع دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٦٤ م.



العامّة، وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال، وهذا هو مقتضى الحال الذي تحدّث عنه أفلاطون في محاورة «فيدروس» وأرسطو في معارض كثيرة^(١).

«هكذا تبدو نظرية البلاغة في رأي هؤلاء هبة من هبات النقد اليوناني للنقد العربي، وهكذا يبدو الذوق العربي عندهم بعيداً عن لحظ نظرية بيانه في أحصص عصور هذا البيان، وهم في هذا الرأي يتفقون مع المستشرقين، الذين يرون أن العرب مدينون في علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهم إلى الفرس واليونان»^(٢). وعلى الرغم من أن الدكتور زكي مبارك خالف المستشرقين في هذا، ورأى أن نشأة البلاغة - والنحو والعروض - قديمة، سبقت القرآن ثم تطورت من بعده^(٣)، لم يكن لرأيه أيّ صدى عند هؤلاء؛ لأنه في الواقع لم يتعرّض لنظرية البلاغة ولم يبين حدود النشأة التي ذهب إليها.

ولقد كنت أعجب كثيراً من أن يكون الذوق العربي رائداً لأروع صور البيان، ثم ناعاً في لحظ نظريته لمن هم دونه في البيان، حتى هديت إلى الحق منذ سنوات - وأنا أدرس تابعاً قبل العصر العباسي - إذ وجدت أن الذوق العربي قد سبق إلى لحظ نظرية بيانه منذ العصر

الجاهلي، لحظها وطبقها ثم دلّ عليها في قول بين كان - كما سنرى - أساس الوصف العباسي لها.

أما تطبيقها منذ العصر الجاهلي فهو ما لاحظته الدكتور طه حسين، وأشار إليه - فيما أسلفنا عنه - وكان في ملاحظته وإشارته تابعاً لما بسطه الجاحظ عن هذا التطبيق حين قال: «ثم اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر، والبدو والحضر، على ضربين، منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه»^(٤).

وكالجاحظ في هذا الوصف ابن قتيبة إذ يقول: «فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً في نكاح أو حِمالة، أو تحضيض أو صلح، أو ما أشبه ذلك، لم يأت به من واد واحد، بل يفتن، فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرّر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين، ويشير إلى الشيء، ويكني عن الشيء، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام»^(٥).

وإذا كان خطيبهم قد راعى كل هذه الأحوال والمقاصد، فهل راعاها دون وعي بها، وبأقدارها وبما ينبغي لكل منها؟

(١) النقد الأدبي الحديث ص ١٦٥. (٢) النثر الفني في القرن الرابع ١/ ٤٤.

(٣) النثر الفني في القرن الرابع ١/ ٤٤ - ٤٩.

(٤) البيان والتبيين ٧/ ٨.

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٣ الطبعة الثانية بدار التراث، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

جاهليته، ويبعد أن يكون تأثر فيه بغير بيئته، خصوصاً إذا عرفنا أنه بدوي لم يتحضّر، وأن عهده بالإسلام وتأثره به إلى حين قوله هذا غير كبير.

على أنني أزيدك ثقة بجاهلية هذا المثل من أمرين آخرين:

أحدهما: تردد طرفيه في كلامهم بنفس معناه فيه، وطرفاه هما: مقام ومقال، إذ ورد «مقام»، في قول لبيد بن ربيعة:

ومقام ضيق فرجته
بلسانٍ وبيانٍ وجدلٍ^(٣)

كما ورد «مقال» في قول هبيرة بن أبي وهب:

وإن مقال المرء في غير كنهه
لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها^(٤)

لا يبدو! لأننا نجد قولهم من قديم: «لكل مقام مقال» ذلك القول الذي أملاه الذوق العربي، فجري مجرى الأمثال، والذي يعني تمام الوعي بأحوال الكلام ومقاصده، والذي يبدو أنه هو المواءة الأولى لنظرية البلاغة العربية.

فإن قلت: متى قيل هذا المثل ومن الذي قاله؟

قلت: قيل في العصر الجاهلي، وقاله أكثم بن صيفي^(١)، ثم نظمته الخطيئة في قوله يستعطف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه-:

تحنن عليّ هداك المليك

فإن لكل مقام مقالا^(٢)

والخطيئة جاهلي أدرك الإسلام، فشطره الثاني هنا يغلب أن يكون ترديداً لما عرف في

(١) العقد الفريد ١٢/٣ بتحقيق محمد سعيد العريان، ط مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م ويوجد المثل غير منسوب في مجمع الأمثال للميداني ١٩٨/٢ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد. «الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٩٥٩ م. الحيوان للجاحظ ٢٠١/١، ٣٦٨/٣ بتحقيق الأستاذ عبد الحميد هارون الطبعة الأولى بمطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م.

(٢) ديوان الخطيئة ص ٢٢٢ بتحقيق نعمان طه، طبع مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م. ويوجد البيت منسوباً إلى الخطيئة، في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣/٢ بتحقيق محمد فؤاد سزكين، الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م. الأمثال للضي ص ٤٩ بتحقيق دكتور رمضان عبد النواب. ط مجمع اللغة العربية بدمشق، بدون تاريخ الأغاني للأصفهاني ٥٦/٢ ط: بيروت.

المستقصى للزمخشري ٢/٢٩٣ ط: حيدرآباد الدكن سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م.

لسان العرب لابن منظور: قول، حنن.

تاج العروس الزبيدي: قول: حنن.

ويوجد البيت غير منسوب في

المقتضب للمبرد ٣/٢٢٤ بتحقيق الدكتور محمد عبد الخالق عزيمة طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

الكامل للمبرد ٢/١٩٩ بتحقيق السيد شحاته، محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار النهضة مصر بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م.

تفسير الطبري ١٦/١ ط: مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.

المنحكم لابن سيده ٢/٣٧٥ بتحقيق عبد الستار فراج ط، مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م.

مع الهوامع للسيوطي ١/١٨٩ الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٧ هـ. مجمع للامثال للميداني ١٩٨/٢.

(٣) البيان والتبيين ١/٢٦٦

(٤) البيان والتبيين ٣/٢٠٣. ونصال جمع نصل وهو السهم العريض الطويل، وهو حديدة السهم والرمح، والسيف.

وكون التنزيل مفرقاً هو مقتضى الحال، وبجيبه على هذا النحو يعني مطابقته لمقتضى الحال. ومع أن تثبيت الفؤاد قد اقتضى كون التنزيل مفرقاً نص القرآن على أنه اقتضى أيضاً تضمينه لقصاص الأنبياء، حيث يقول عز من قائل: «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك»^(٤).

وأما بيانه عليه السلام فهو بيان أفصح العرب الذي بلغ من رعايته لمقتضى الحال أن يستعمل ألفاظ القبيلة الخاصة بها في مخاطبتها، كما فعل في مخاطبة حمير وغيرها، ومن أقواله الداعية إلى تحرير مقتضى الحال مع الأداء الفصيح قوله: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» رواه الشيخان والترمذي^(٥).

تكلم رجل لدى رسول الله فأطال، فقال له: كم دون لسانك من حجاب؟ قال: شفتاي وأسناني قال: إن الله يكره الانبعاث في الكلام، فنضر الله وجه رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته» رواه الزمخشري في الفائق، وابن الأثير في النهاية^(٦)، وقوله:

والآخر، أن صاحبه - أكرم بن صيفي - كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه: «افصلوا بيت كل معنى منقضى، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض»^(١) مما يعني إدراكه لمعنى الفصل والوصل وحال استعمال كل منهما.

وإذا كان الذوق الجاهلي بهذا المثل قد وضع النواة الأولى «لنظرية البلاغة» فإن الذوق الإسلامي قد أشار إلى كثير من عناصرها منذ الصدر الأول، وحسبنا في الدلالة على ذلك مصدران هاما هما بيان القرآن وبيانه عليه السلام:

أما بيان القرآن فهو المثل الأعلى في رعاية مقتضى الحال، لأنه تنزيل العليم الخبير، وعن هذه الرعاية فيه جاء قوله سبحانه «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك»^(٢) أي كذلك أنزلناه متفرقاً على خلاف ما اقترحوا لنثبت به فؤادك يا محمد^(٣)، فتثبيت الفؤاد هو ما يسميه البلاغيون بالحال المقتضية لمجيء الكلام على نحو خاص،

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٤٤٠ الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة وتحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.

(٢) سورة الفرقان آية ٣٢.

(٣) تفسير القرطبي ١٣/٢٨، ٢٩ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م. لكن ابن قتيبة في تعليقه على هذه الآية يرى أن الخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فالمراد بالتثبيت هو المؤمنون ثم يقول: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السامة عليهم، أي يتمهدهم بها عند الغفلة ودثور القلوب. ولو أتاهم القرآن نجاة واجداً لسبق حدوث الأسباب التي أنزله الله بها، ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين، وعلى من أراد الدخول في الدين، ولبطل معنى التنبيه، وفسد معنى النسخ، لأن المنسوخ يعمل به مدة ثم يعمل بتاسخه بعده. تأويل مشكل القرآن ص ٢٣٢.

(٤) سورة هود آية ١٢٠.

(٥) انظر التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول ١٩٢/٥ طبع عيسى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.

(٦) انظر الفائق في غريب الحديث ١/١١٩، والنهاية في غريب الحديث ١/١٤١ والانبعاث في الكلام: الاندفاع فيه والتكثير منه. وهو مظنة الخطأ وقلبا سلم صاحبه من زلل لأنه يؤديه إلى الزيادة عن معانيه وعن حاجته.

قول أكثم لكل مقام مقال - لم تفارق خيال النقاد ولا ألسنتهم، حتى في العصر العباسي، إذ على الرغم من تأثرهم بالنقد اليوناني في هذا العصر لم نكد نجدهم يذكرون مقتضى الحال إلا من خلال هذا القول، وتأمل - إن شئت - من صفوهم بالتأثر، وبأنهم نقلت الفكرة من النقد اليوناني إلى النقد العربي؛ تأمل أقوال هؤلاء لا سيما ابن المقفع وبشر بن المعتمر والجاحظ:

أما ابن المقفع فهو القائل في تعريفه السابق: «إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو» وهذا القول الذي ظن البعض أن فيه جرثومة التعريف الاصطلاحي ليس إلا بسطاً وترديداً لشطر المثل القديم «لكل مقام مقال» أليس يقول: «إذا أعطيت كل مقام حقه وكل مقام» هي شطر هذا المثل، ثم يقول «وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام» وغني عن القول أن ثقافته العربية كانت شاملة لهذا ولغيره، وأنها لم تكن أقل من ثقافته الأجنبية إن لم تزد عليها.

وأما بشر بن المعتمر الذي عدّ حجة على التأثر

«هالك المتنطعون» ثلاث مرات رواه مسلم وأبو داود^(١)، وقوله: «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون المتشدقون فما المتفيهقون؟ قال المتكبرون» رواه الترمذي^(٢). وقوله: «إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها» رواه أبو داود والترمذي وابن حنبل^(٣). وقال معاوية: «شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمل على علي رضي الله عنه - كتاباً وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صرعيته»^(٤).

أرأيت كيف أشار القرآن إلى الحال وإلى مقتضاه، ثم كيف دعا الرسول عليه السلام إلى تحري ذلك مع تجنب التعقيد والتكلف والتصنع والإغراب؟

فهل لنا بعد هذا أن نقول: إن نظرية البلاغة العربية هبة الذوق العربي لا الذوق اليوناني، وأن الذوق العربي قد لحظها وطبقها ودل عليها قبل أن يعرف الذوق اليوناني بزمان طويل؟

أجل! قد آن لنا أن نقول ذلك. وأن نقول معه: إن الصورة الأولى للنظرية - وهي

(١) جامع الأصول ٣٣٩/١٢، وانظر مسند أحمد بن حنبل ٢٣٨/٥ تحقيق الشيخ محمد شاكر، ط دار المعارف سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م. والمتنطعون: قال في النهاية هم المتعمقون المغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوهم مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم ثم استعمل في كل تعمق قولاً وفعلًا.

(٢) التاج الجامع للأصول ٦٦/٥.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٢٨٣/٢ طبعة أولى بمطبعة مصطفى محمد بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٨ م والباقرة البقرة وتخللها بلسانها يعني لفها الكلا بلسانها في شديقها. قال في النهاية: أي يتشدد في الكلام بلسانه وبلغه كما تلف البقرة الكلا بلسانها لفا. والمراد ذم المظهر للتفاسح تيهاً بها واستعلاء على الغير.

(٤) كتاب الصناعتين ص ٤٣٩. والمصرم. صاحب الصرعية: وهي القطعة من النحل ومن الإبل أيضا. اللسان: صرم.

مما تريد في القليل مما تقول . . ثم علق عليه بقوله: يريد الإيجاز، وهذا ليس بمحمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطل تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام، وعلل ذلك مستوفاة في كتابنا المؤلف في «تأويل مشكل القرآن»؟! (١)

وإذ قد تبين لنا أن نظرية البلاغة جاهلية الأصل، وأن قول الجاهليين عنها كان قبل غيره أساس الوصف العباسي لها:

صح أن نقول: إن العرب الذين تحداهم القرآن، وأعجزهم ببلاغته، كانوا موضعاً لتحديه، لأنهم عجزوا عن معارضته مع إدراكهم لنظرية بلاغته، ومن ثم كان عجزهم حجة عليهم، ودليلاً على صدق النبوة، ولو أنهم كانوا بعيدين عن هذه النظرية وعن تصورهما كما ذهب الدارسون - فيما قدمنا - لربما قيل إنهم لم يكونوا موضعاً للتحدي، ولم يكن عجزهم دليلاً على شيء، وهو قول نعوذ بالله منه، ونسأله بعونه أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كما أسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يتقبله بقبول حسن. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. السعيد السيد عبادة

بكلامه السابق فقد أيد هذا الكلام بالمثل إذ يقول: «ولما مدار الشرف - يعني شرف المعنى - على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال».

وأما الجاحظ، الذي كثر حديثه عن مقتضى الحال، فقد كثر ترديده للمثل وثناؤه على صاحبه في غير موضع من كتبه، كقوله في الحيوان:

«ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء! فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال . . وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومُلهٍ وداخل في باب المزاح والطيب، فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن جهته، وإذا كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكرها ويأخذ بأكظامها . . وقد أصاب كل الصواب الذي قال: لكل مقام مقال» (١).

فإذا ذكرنا من هو أقل تأثراً من هؤلاء بالفكر الأجنبي كابن قتيبة فماذا نجد؟ سنجده أيضاً لا يذكر مقتضى الحال إلا ذكر المثل بنصه أو بمعناه، فإذا كان قد ذكر بمعناه فيما أسلفنا من قوله فهو قد ذكره بنصه حين ذكر قول ابرويز «واجمع الكثير

(١) الحيوان ٣/٣٩-٤٣. ويكرها يحزنها من الكرب: وهو الحزن والغم الذي يأخذ بالنفس، ويأخذ بألفاظها، أي يأخذ بحلوقها، لأن الأكظام: جمع كظم وهو مخرج النفس من الحلق. (اللسان: كرب وكظم).

(٢) أدب الكاتب ص ٩ مطبعة الاتحاد الأخوي بالحسين بمصر. بدون تاريخ.